التبيين في فوائت القدماء والعصريين

الأستاذ صبحي البصّـام

(١) تمهيد:

هذه مباحث لغوية أضعها بين أيدي رُوّام العلم، وطلّاب المعرفة، عسى أن يجدوا فيه غُنية وبلاغاً. وفي المباحث تنبيه على فوائت جماعة من المختصّين بالعربية. ولم أقصد بتنبيهي إلى تقبيح فائتة، ولا إلى تجريح كرامة. فذلك ليس مما يهجس في ضميري. ثم إنّ نُهايَ ناهيةٌ لي دونه. وإنما قصدي أن أجعل المباحث أوسع وأنفع. وقصدي الأعلى أن أبرّ لغتنا التي هي لغة قرآننا، وتراث أجدادنا، ووعاء حضارتهم الزهراء، والتي هي المعوّل عليها في احتضان حضارتنا في عصورنا الحديثة، وهي مستحقّة علينا أن نبرّها، خصوصاً بعد أن جعل طائفةٌ من أبنائها يعقونها، وطائفةٌ من المحسوبين عليها ينالون منها، ويتنغّرون لها. ولا أدّعي فضل علم على أحد، فقد يلتفت من هو قليل العلم إلى فائتة فاتت من لا يُسامى في علمه، ولا يخلو إنسان من نسيان، ولا قلم من طغيان، ومن رام أن يُعصم من الخطأ فدون مرامه حَدَد، وعسى أن ينبهني القارئ الكريم إذا رآني خائضاً فيه، لأفثأ نفسي عنه. ورحم الله الشعبيَّ القائل: إنّي لأستحيي من الحق إذا عرفته أن لا أرجع إليه.

(٢) بَلِيٌّ جَمْعُ بَلِيَّة:

في "ديوان النابغة" صنعة ابن السكّيت، وتحقيق الدكتور شكري فيصل جاء للنابغة (ص١٠٥):

بانت سُعادُ وأمسى حبلُها انجذما واحتلّت الشرعَ فالحيين من إضَمَا
إحدى بَلِيَّ وما هام الفؤاد بها الّا السفاه وإلّا ذُكرَةً حُلُما

وقال ابن السكّيت في البيت الثاني "... وروى الأصمعي الّا سفاهاً. والحُلُم ما رأيته في النوم، بَلِيَّ: من بني القين بن جَسْر من بني قضاعة. يقول إنما ذكره لها باطل ومحال." قلتُ: قوله في "بلِيّ": "من بني القَيْن بن جَسْر..." هو على صحته قليل النوط بمعنى البيت، وعندي أنها "بَلِيُّ" جمع "بَليّة" وهي المحنة، أضيفت إلى ياء المتكلم فصارت "بَلِيَّ"، والمراد بـ "إحدى بَلِيَّ" أن سُعادَ إحدى المِحَن التي امتُحِنتُ بها، وعدّها محنة لمقاساته حبّها، ولِجفوتها إيّاه، ونأيها عنه، و"بَلِيَّ" بمعنى "مِحَني" أكثر نوطاً بمعنى البيت من: "من بني القين بن جَسْر..". وجمع "بليَّة" على "بَلِيّ" كجمع مطيّة على مَطِيّ. قال طَرَفة:

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون لا تهلك أسىً وتجلّدِ

وكجمع ركِيّة على ركِيّ. قال تويت، وهو عبدالملك بن عبد العزيز السلولي، كما في معجم البلدان (برقة نجد):

قالت الماءُ في الركيّ كثيرٌ قلتُ ماء الركيّ لا يرويني

وخَلَت معاجم اللغة من جمع بليّة على بلِيّ. ولو كان ابن السكّيت قال به في تفسيره البيت لتلقّفت المعاجم قوله.

هذا مبلغ علمي في "بَلِيّ" في البيت. فإن كنت مصيباً في استدراكي على ابن السكّيت، فذلك لا يكدّر من زاخر بحره، ولا يضع من شامخ قدره فقد كان ممّن قعّدوا قواعد اللغة، وثبّتوا أركانها، وشادوا بنيانها، وخليق بالذكر أن اللغويين والنحويين قد يعثرون في تفسيرهم الشعر إذا لم يكن من صنعتهم، وأخص خصوصاً ابن جني.

(٣) قول في حَجْرة بالفتح وحُجرة بالضم:

كثر الخطأ في "حَجْرة" بفتح الحاء بمعنى ناحية، وذلك بضبطها بضم الحاء، توهّماً أنها بمعنى بيت. وكنتُ نبّهت في بعض مقالاتي على هذا الخطأ في بعض الكتب[١]، وأضيف ههنا أنّ السبب في ثلاثة معاجم لغوية هي العين واللسان والتاج.

ففي العين[٢] (ج٧- فضّ):

إذا اجتمعوا فضضنا حُجرتيهم ونجمعهم إذا كانوا بَدَادِ

وضُبطت الحاء من "حُجرتيهم" بالضمّ، والصواب الفتح، أي ناحيتهم. ووجدتُ "حَجرتا" العسكر في تفسير الأزهري لها، ولكني وجدتُ البيت منقولاً هو وتفسيره من التهذيب إلى اللسان، وقد ضبطت فيه "حُجْرتيهم" و"حُجْرتا" العسكر بضم الحاء. والصواب بالفتح منهما، ووجدت الغلط في هذين اللفظين قد انتقل من اللسان إلى التاج (ج١- غرف) من طبعة الكويت، تحقيق الأستاذ عبدالستار أحمد فوّاج.

ومن استعمال "حَجْرة" بالفتح بمعنى ناحية قول جميل العذري كما في عيون الأخبار (٥٠/١):

---

(١) نُشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦ الجزء ١ (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

(٢) هو تأليف الخليل بن أحمد الفراهيدي وتحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي. وقد دخل فيه من بعد وفاة مؤلفه، أو المحتفظِ بنسخته الوحيدة الليثِ كلامٌ أفسد كثيراً منه، وأظن أن بعض نسخه كانت قليلة الفساد كالنسخة التي وقف عليها ابن دريد. فقد وجدته يقرّط الكتاب دون أن يشير إلى ما وقع فيه من الفساد. وذلك بقوله، كما في المحاسن والمساوئ إن الخليل في كتابه هذا: "أتعب من تصدّى لغايته، وعنّى من سما إلى نهايته"، واعتمد الأزهري موادّ هذا الكتاب جميعاً في كتابه "تهذيب اللغة"، ونبّه على أغلب ما فيه من فساد، وأظنه حين صنّف كتابه هذا كان على أن يسمّيه "تهذيب كتاب العين" ثم بدا له فسماه "تهذيب اللغة" وهي تسمية متكلّفة.

فأنتم ولأيّ موضع الذلّ حَجْرةً وقُرّةُ أولى بالعلاء وبالمجدِ

وقول الزمخشري في خبر حاتم الطائي كما في المستقصى من أمثال العرب (٥٥/١): "وهو متقنّع في كسائه وقد قَعَد حَجْرَةً ما ذاق شيئاً". ومن استعمالها في المثنى قول أوس بن حجر كما في هذه المجلة (العدد ٣٤ ص٢١٧ سنة ١٩٨٨):

ضممنا عليهم حَجْرتيهم بصادقٍ من الضرب حتى أرعشوا وتضعضعوا

فإذا جمعت حجْرة بالألف والتاء قيل حَجَرات بفتح ففتح، ومنه قول مزروقي في صفة درع (ديوان المفضليات ص٧٤):

كأنّ شعاع الشمس في حَجَراتها مصابيح رهبان زهتها القنادلُ

أما حُجْرة بضم الحاء فالبيت على أرض الدار وغير الدار. فإن كان فوقها بيت قيل له غرفة، وأهل مكة يقولون له "عُلّيّة"[1] ومثنى حُجْرة حُجْرتان. "فإذا جمعت حجرة بالألف والتاء قيل: حُجُرات بضم فضم. قال تعالى: "إن الذين ينادونك من وراء الحُجُرات أكثرهم لا يعقلون". أريد بالحُجُرات في الآية بيوت بُنيت على أرض المسجد لسكنى الرسول ﷺ وسُكنى أهله، ونحن نقول في عصرنا هذا لكل بيت من بيوت الدار غرفة سواء أكان غُرْفة أم حُجْرة، وذلك عند الخاصة على التغليب، وعند العامة على التقليد. مما يدلّ على ارتفاع الغرفة ما جاء في الإمتاع والمؤانسة (١٧٦/٣): "فقال له الثَنَويّ: أصعدت إلى الغرف؟". وما جاء في الحيوان (١٨٩/٢): "ولجأنا إلى بيت خارج الأجمة وصعدنا الغرفة". وفي "المدهس" (ص٤٣٥): "وكان عطاء يبكي في غرفة له حتى تجري دموعه في الميزاب، فقطّرت يوماً إلى الطريق على بعض

(١) ذلك في البيان والتبيين، في قول لابن مناذر (١٩/١)، وفي الاشتقاق، في قول لابن دريد (٣٥٥/٢).

المارّين فصاح: يا أهل الدار أماؤكم طاهر؟ فصاح عطاء: اغسلْهُ فإنّه دمع من عصى الله"[1].

وميّز بين "حُجْرة" بالضم و"حَجْرة" بالفتح قول للعلامة ناصيف اليازجي في مجمع البحرين في المقامة العقيقية (ص٢٣) وهو: "واعتزل إلى حَجْرة، وافترش أريكته في ظل حُجْرة".

(٤) قول في سَفَوان:

"سَفَوان"، اسمُ موضع، بفتح ففتح، وأُسكن ثانيه خطأً قديماً وحديثاً. فمن الخطأ في ضبطه حديثاً ما جاء في كتاب العين (ج٧- سقى): "سَفْوان: اسم موضع لبني تميم عند جبل يقال له سنام ببادية البصرة". هكذا بضبط سَفْوان بفتح فسكون، ويجوز أن يكون الخطأ في الضبط من الناسخ ثم أقرّه الأستاذان محققا الكتاب. ويدلّ على الخطأ فيه قديماً قول ابن السكّيت في إصلاح المنطق (ص١٩٤): "وهو سَفَوان اسم بلد ولا تقل سَفْوان". ثم قول ابن قتيبة في أدب الكاتب (ص٤٢١) في "باب ما يغيّر من أسماء البلاد"، قال: "وهي طرَسوس وسَلَعُوس وسَفَوان.. كلّ ذلك بفتح ثانيه". وقال الجوهري في الصحاح (سفى): "وسَفَوان بالتحريك موضع قرب البصرة". وقال البكري في معجم ما استعجم (٧٤٠/٣): "سَفَوان بفتح أوّله وثانيه على وزن فَعَلان ماء بين ديار بني شيبان وديار بني مازن على أربعة أميال من البصرة عند جبل سنام". وقول البكري: "على أربعة أميال من البصرة" فيه نظر. والأولى التعويل على ما ذكره ياقوت في معجم البلدان (مج ٩٨/٣ لايبزج) نقلاً عن تهذيب اللغة وهو أنه على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة، لأن المسافر من الحجاز إلى البصرة كان ينزل فيه للاستراحة ثم يرتحل لينزل في

---

(١) نقلت النص بكماله لطرافته، ولأقول فيه: هو مبالغ فيه. ويجوز أن يكون الماءُ ماءَ وضوئه وهو كثير اختلط بدمعه وهو قليل، فغُلّب القليل على الكثير للوعظ والاعتبار.

البصرة، وقد نزلت فيه عائشة، ومعها طلحة والزبير رضي الله عنهم جميعاً، عند توجّهها إلى البصرة قبيل حرب الجمل، روى ابن دريد في الاشتقاق (١٤٥/١) أنّ بعضهم لمّا بلغه بالبصرة قدومهم رأى أن يستقبلهم في الطريق قبل أن يغلبه عليهم الناس، قال "فركبت فرسي وخرجت فلقيتهم وقد ارتحلوا من سَفَوان مقبلين"، وقوله "وقد ارتحلوا من سَفَوان" دليل على أنهم كانوا نازلين فيه ثم ارتحلوا عنه، وإن كانت المرحلة في كتب اللغة ما يقطعه المسافر في اليوم فعندي أنها تعدل مرحلة البريد في حساب أهل البادية وهي ١٢ ميلاً. والقول في ذلك يطول وليس هذا موضعه.

ومن الشعر الدال على فتح السين والفاء من سَفَوان قول ودّاك بن نُمَيل المازني كما في شرح ديوان الحماسة (١٢٧/١ المرزوقي):

رُوَيْدَ بني شيبان بعضَ وعيدِكُمْ تلاقوا غداً خيلي على سَفَوانِ

وقول منظور بن مرئد الأسدي كما في الجمهرة (مادة/ ر ص ع):

جاريةٌ بسَفَوانَ دارُها تمشي الهوينى مائلاً خمارُها

وسَفَوانُ الآن موضع لشرطة الحدود العراقية والكويتية. وفيه تدوّن أسامي المسافرين وتُفْحَصُ أجوزتهم. ولا يُعرف في العراق إلّا بـ "صَفْوان" بقلب السين صاداً وإسكان الفاء. وأظنّه كذلك يُعرف في الكويت. وفيه احتمال الالتباس بـ "صَفْوان"، وهو الصخر الأملس، أو بصَفْوان من أسامي الرجال، خصوصاً عند النسب في قولهم "صَفْواني" بدلاً من "سَفَوانيّ".

(٥) "سَفَوان" آخر:

وبين مكة والمدينة، كما في سيرة ابن هشام (ق ٦٠١/١) وادٍ يقال له "سَفَوان". وكان النبي ﷺ خرج من المدينة لقتال كُرْز بن جابر، فبلغ ذلك الوادي

دون أن يدركه، فرجع. فقيل لهذه الغزوة "غزوة سَفَوان". ولم أرَ اسم هذا الوادي في "سفوان" في معاجم اللغة، فرأيت التنبيه عليه ههنا.

(٦) قول في أسفار التوراة:

في كتاب العين (ج٧/ سفر): "والتوراة خمسة أسفار، أي كتب، سفر يخرج من بني إسرائيل من مصر، وسفر لسيرة الملوك، وسفر الوصية، وسفر مكرّر". وهو نصّ فيه أغلاط:

أ- ففيه أن أسفار التوراة خمسة ولكنّ المسمّاة فيه أربعة. وفي "الكتاب المقدّس" طبعة جامعة أوكسفورد سنة ١٨٧١ المنقولة من العبرانية والكلدانية واليونانية إلى العربية وهي مرجعي الآن، أنّ أسفار التوراة الخمسة هي: التكوين، والخروج، واللاويين والعدد والتثنية، فالساقط من كتاب العين السفر الأول وهو "التكوين" وأوّله في تكوين الخليقة.

ب- وفيه "سفر لسيرة الملوك". ولا سفر من أسفار التوراة الخمسة بهذا الاسم، وفي "الكتاب المقدّس" "سفر الملوك الأول" وهو السفر الحادي عشر، ف "سفر الملوك الثاني" وهو السفر الثاني عشر. وهما في الترتيب بعيدان من أسفار التوراة. والصواب كما في الكتاب المقدّس "سفر العدد"، وفيه مواليد الأسباط وعددهم، وبذلك يكون قد حُذف من نصّ كتاب العين سفران من أسفار التوراة وأضيف إليها سفر غريب عنها.

ج- وفيه "سفر يخرج من بني إسرائيل من مصر". وهي عبارة مختلة، وأراها محرّفة عن "سفر بخروج بني إسرائيل من مصر". ويقابله في الكتاب المقدّس "الخروج". وأوّله في خروج بني إسرائيل من مصر، ثم ألواح النبيّ موسى وفيها الشريعة.

وأقول موضّحاً: سفر الوصية يقابله في الكتاب المقدّس "اللاويين" على حذف المضاف وهو "سفر". وكلتا التَّسْميتيْنِ صحيحة، وهي من باب تسمية كلّ باسم بعض، لأنّ في هذا السفر أحكام الكهنة واللاويين وجملة وصايا. و"سفر مكرّر" يُقابله في الكتاب المقدّس "التثنية" أي التكرير، فالتسميتان بمعنى واحد، وهذا السفر تكرير لأحكام الشريعة والوصايا، وينتهي بموت النبي موسى، والكتاب المقدّس يضمّ العهدَ القديمَ الخاص باليهود، وهو تسعة وثلاثون سفراً تبدأ بأسفار التوراة الخمسة، والعهدَ الجديدَ الخاص بالنصارى، وهو الأناجيل الأربعة وما ألحق بها.*

سفر الأشفية: ذكر ابن أبي أُصيبعة في عيون الأنباء (ص١٧) أنّ طائفة من اليهود قالوا إنّ الله تعالى أنزل على النبي موسى سفر الأشفية. قلتُ: إن كانوا من أصحاب العلم القديم، ولم يكونوا في الأصل من أسرى بابل، كان قولهم موضعَ تفكّر وتدبّر، وإلّا كان ذلك من أوهامهم أو تكاذيبهم، لأنهم به يكونون أضافوا إلى توراتهم التي أملاها النبي عُزَير ما ليس منها، على أنه قيل إن النبيّ سليمان أخذ شيئاً من كلّ نوع من أنواع النبات وكتب عليه اسمه وأنّه شفاء من مرض كذا وخَتم عليه، ويجوز أن يكون أولئك اليهود قالوا به ثم عُدِل بقولهم عن جهته، أمّا ما ذكرتُهُ في النبيّ عُزَير فخبره باختصار مما ذكره الفرّاء في معاني القرآن (٤٣٢/١): كان بُخْتَ نَصَّرَ قتل كلّ من كان يقرأ التوراة. فأتي بعُزَير فاستصغره فتركه. ثم أملى عُزير عليهم التوراة عن ظهر لسانه، فلما استحقّ عندهم صحة ما أملاه، قالوا: ما جمع الله التوراة في صدر عُزَير وهو غُلامٌ إلّا وهو ابنه. وفي ذلك قوله تعالى: "وقالت اليهود عُزُير ابن الله..." الآية.

(٧) "مَعْناً" لا "معنىً":

وفي كتاب العين (ج٧ – بست) ورد البيت:

---

* قد أحوجني "قول في أسفار التوراة" إلى قراءة أسفار التوراة الخمسة وإلى تصفّح سائر الكتاب المقدّس.

أيا قبراً ببُسْتَ يُجِنّ معنىً عليك ولا على بُسْتَ السلامُ

والبيت مُغَيَّرٌ لا يصحّ، لإفساد "معنىً" للمعنى برسم ألفها على الياء، والصواب "مَعْناً" وهو مَعْن بن زائدة. والبيت في رثائه، وكان معنُ ببُسْتَ، واندسّ الخوارج مع فَعَلة كانوا يبنون في داره بناء، وأخفوا سيوفهم في حُزم القصب التي أتوا بها للتسقيف. ثم دخلوا عليه قبته وهو يحتجم فقتلوه مُغافَصَةً، هذا هو المعروف من قتل مَعْن في الكتب المعتمدة كفتوح البلدان (٤٩٢/٢). على أنّ مؤلف "تأريخ الموصل"[1] ذكر في كتابه هذا (١٧٥/٢) أن قاتله هلال بن المفضّل الطائي، وكان صحبه من اليمن إلى بغداد ثم إلى خراسان حتى أمكنه غرَّتَه فقتله ثأراً بأخيه، قلتُ: "يجوز أن يكون أقارب مَعْن أو أصحابه تظنّوا أنّ هلالاً كان متواطئاً مع الخوارج ليثأر بأخيه، ثم عدّه مؤلف "تأريخ الموصل" قاتلاً وأغفل اسم الخوارج، وبيت الشعر منظور فيه إلى قول الأحوص:

سلامُ الله يا مطرٌ عليها وليس عليك يا مطرُ السلامُ

(٨) قول في "جشوبة الطعام":

الجشوبة في كتب اللغة الغلظ، والطعام الجشِب هو الذي ليس معه إدام، قلتُ: ويُراد بالطعام ههنا الخبز، وما قيل في كتب اللغة في الطعام الجشب هو أصل، ثم اتّسع معناه إلى الطعام الخالي من الطيّبات. وكثر استعمال الخشونة والجشوبة معاً. الخشونة لما يُنسج وخاصة الملبوس، والجشوبة لما يؤكل. ومن ذلك قول ابن عباس في علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، كما في المحاسن والمساوئ (٧١/١): "ويعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب". وقولُ بعضهم لعلي في الكتاب نفسه (٤٠٠/٣): "يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك".

---

(١) هو يزيد بن محمد الأزدي المتوفى سنة ٣٣٤. ومحقق الكتاب هو الأستاذ علي حبيبة.

وقولُ أبي العبّاس السرّاج كما في تأريخ بغداد (٢٥١/١): "أكلنا الجشب، ولبسنا الخشن، حتى جمعنا هذا المال". وكما يقال طعام جشب يقال طعام جشيب، كقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما في كتاب الغارات (٣٠٣/١): "تشربون الماء الخبيث، وتأكلون الطعام الجشيب". والجشيب فعيل بمعنى مفعول أي مجشوب، قال ابن الرومي (الديوان ص٢٦٤):

ثوبيَ الرثّ والثياب طِراءٌ وطعامي برغمي المجشوبُ

ويُقال: هو جشب المأكل أي جشب المطعم. قال أبو النجم العجلي، كما في الطرائف الأدبية (ص٥١):

مختلط المفرق جشب المأكلِ الّا من القارص والممحّل

ويُقال جَشَب طعامَهُ فطعامه مجشوب، كما في بيت ابن الرومي المذكور آنفاً، ويقال: أَجْشَبَ طَعَامَهُ فطعامُهُ مُجْشَبٌ، بدلالة قول ابن السمّاك الآتي (الفقرة ٨- ب). وللتشابه بين رسم جشوبة وخشونة، وللتقارب بين رسم جشب وخشن، وللتداني في معاني هذه الألفاظ، ولعدم النقط قديماً في كثير من المواضع، وقع تصحيف وتحريف في تلك الألفاظ في قسم من الكتب. وأنا منبّه ههنا على ما عثرت عليه من ذلك، معتمداً على ما قدّمتُ من قول في "جشوبة الطعام" وعلى ما تحصّل لي من خبرة.

أ- تصحيف "جشوبة" في تأريخ الرسل والملوك:

في "تأريخ الرسل والملوك" للطبري (القسم الثالث ٧١٧/٢) المطبوع في بريل سنة ١٨٨١م تحقيق المستشرق العلّامة دي غويه DE GOEJE"[1] جاء في عهد هارون الرشيد لهرثمة بن أعين في علي بن عيسى وولده وعمّاله: "فإذا خرجوا من

(١) ساعده في تحقيق هذا الجزء المستشرق الأستاذ كيارد CUYARD.

كلّ ذي حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء، وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس". وخشونة في "خشونة المطعم والمشرب" مصّحفة عن "جشوبة" بالجيم، وبذلك يتم تقسيم الكلام على خشونة فجشوبة فغلظ. فإن قيل: كيف جاز "جشوبة المطعم والمشرب" بنسبة الجشوبة إلى المشرب؟ فالجواب: ذلك نحو قوله: علفتُها تبناً وماءً بارداً. والتصحيف في "خشونة" المطعم الذي وقع في تأريخ الرسل والملوك هو عينه في طبعته التي سمّيت "تأريخ الطبري" (٣٢٨/٨)، وهي طبعة الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم سنة ١٩٦٣، ويجوز أن يكون التصحيف نفسه في طبعة مطبعة الاستقامة وهي ليست في متناول يدي الآن.

ب- تصحيف "أجشب" في عيون الأخبار:

ومن التصحيف في ذلك ما جاء في عيون الأخبار (٣١٥/٢) تحقيق الأستاذ أحمد زكي العدويّ. وهو ما قاله ابن السمّاك في تأبين داود الطائي: "أخشنت المطعم وإنما تريد طيبه، وأخشنت الملبسَ وإنما تريد لينه. ثم أمتّ نفسك قبل أن تموت..."، والصواب "أجشبت المطعمَ" بالجيم.

ج- تصحيف "جشوبة" في جمهرة رسائل العرب:

وأيضا من التصحيف ما نقله الأستاذ أحمد زكي صفوة من طبعة قديمة لبعض الكتب إلى كتابه "جمهرة رسائل العرب" (٧٨/٤) وهو ما جاء في رسالة بعضهم: "... وعلى خشونة الملبس وخشونة المأكل". والصواب "جشوبة" المأكل بالجيم.

د- تصحيف "الجشب" وتحريفها في العقد الفريد:

ومن التصحيف والتحريف في ذلك ما جاء في العقد الفريد تحقيق الأستاذين أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري. وهو أن بعضهم تقشف في معيشته، وبالغ في ذلك حتى غمّ أهله وأحزن ولده، فلما لامه علي بن أبي طالب في ذلك أجابه (٣٧٢/٢): "فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن وأكل

الحشف"[1]. وأرى أن "الحشف" محرّفة عن "الجشب". وقال المحققون في الحشف "كذا في ي. والحشف بالفتح الخبز اليابس وبالتحريك أردأُ الثمر. والذي في سائر الأصول الخشب". وإنما صرفهم عن الأخذ بما في سائر الأصول نكارة "الخشب"، لعدم صلاحه لأن يكون طعاماً، وفاتهم أنه تصحيف "الجشب".

تنبيه:

لا شك أن عليّاً رضي الله عنه عاش إبّان خلافته عيشة تقشف. على أنه لا يعقل أن يكون قصر طعامه على الخبز اليابس أو أردأ التمر. فهو كما في تذكرة الخواص (ص١١٠-١١٢) شوهد مرّة يفطر على شعير مطحون، ومرّة على سويق، ومرّة على رغيف شعير وقدح لبن. وشوهد مرّةً وطعامه الخزيرة، وفسّرت الخزيرة باللحم يدقّ ويطبخ ويذرّ عليه الطحين. وقال فيه موسى الكاظم رضي الله عنه كما في "مكارم الأخلاق" إنه كان يعجبه السكباج، وهو مرق يعمل من اللحم والخلّ. وذُكر في الغارات (ص٨٥) أنه كان طعامه تزيدة بزيت مكلّلة بالعجوة، وكانت العجوة تحمل إليه من المدينة، وقرأت في كتاب فات عني اسمه أنه كان يحب أكل العدس. وحاصل ذلك كله أنّ طعامه كان جشّباً لا حشفاً.

هـ- تصحيف "جشب" وتحريفها في الترغيب والترهيب:

ومن التصحيف واحتمال التحريف في ذلك ما جاء في "الترغيب والترهيب" (٢٠٤/٤) تحقيق الأستاذ مصطفى محمد عمايرة. وهو قول أنس بن مالك رضي الله عنه: "أكل رسول الله ﷺ بِشعاً ولبس حِلْساً خشناً". هذه رواية ابن ماجة. وفسّرت "بِشعاً" بغليظ الشعير. وفي الكتاب نفسر أن رواية الحاكم "خشناً" في مكان "بشعاً". وصفوي مع "خشناً" على أن تُعَدّ تصحيف "جشباً". و"بشعاً" جائزة إلّا أن تحريفها أكثر

---

(١) القائل هو عاصم بن زياد. وتقدّم قوله دون ذكر اسمه، ولكن بألفاظ أُخَر، منقولاً من المحاسن والمساوئ (٤٠٠/٣) وباستعمال "جشوبة" (الفقرة ٨).

جوازاً. أمّا تجويزي إيّاها فعلى أنّ المأكول البشع كان في أحوال نادرة، بدلالة سياق الكلام، وذلك مما يقع لكل أحد. وأما ميلي إلى تحريفها فلغرابتها.

و- خشونة العيش وجشوبته:

كثر وصف "العيش" ومنه "المعيشة" و"المعاش" بالخشونة، وهي ضد الرفاهية واللين. وذلك في حالين تكونان معاً. إحداهما أن يراد بالعيش ما يُلبس ويُؤكل ويُشرب ويُنام عليه ونحو ذلك. والأخرى أن لا يقابله "اللباس" ولا أي منسوج آخر. كقول المسعودي في مروج الذهب (ج٤): "وطئه الدهر، فغيّر حاله، وخشّن معيشته" وكقول النووي في رياض الصالحين (ص١٤٩) في عنوان باب من أبواب الكتاب "باب فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول والمشروب والملبوس[1]".

لذلك أجدني متوقفاً فيما جاء في كتاب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عثمان بن حنيف الأنصاري كما في نهج البلاغة (ص٥٠٧) ويعني به الفقراء "... أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش". وأرجّح أن "جشوبة" مصحّفة عن "خشونة". وسياق كتابه هذا يدل عليه. ثم إنّ تقشفه كان في مختلف وجوه العيش إلا في طعامه وحده فيقال جشوبة. فمن ذلك ما روي في كتاب الغارات من أنه ذهب إلى السوق وهو بالكوفة ليشتري لنفسه ثوباً بدرهمين فوجد أن أرخص الثياب بأربعة دراهم. فإذا قابل "اللباسُ" "العيشَ" دلّ العيشُ على الطعام، فيوصف بالجشوبة لا الخشونة. كقول الجاحظ في البخلاء (٢٠٩): "تزيّد في جشوبة عيشهم وفي خشونة ملبسهم"، لذلك أرى أن قول عدي بن حاتم في المحاسن والمساوئ (٧٢/١) في علي بن أبي طالب "يعجبه من اللباس القصير، ومن المعاش الخشن"، فيه "الخشن" تحريف "الجشب"، لمقابلة اللباس للمعاش.

---

(١) قوله "والاقتصاد على القليل من المأكول والمشروب والملبوس" كأنه تفسير لقوله: (خشونة العيش).

ويحسن من الناظر في احتمال تصحيف أو تحريف في جشوبة مطعوم، أو خشونة منسوج، أو خشونة معاش، أن يكون ذا مران في ذلك، لطيف النظر، مكيث الرأي.

(٩) قول في "سجاعة":

إن كان وقع تصحيف وتحريف على "جشوبة" وبعض ما تفرّع عليها، فقد وقع تصحيف على "سِجاعة" بجعلها "شجاعة"، وعلى "سجّاعاً" بجعلها "شجاعاً". وسبب ذلك التشابه في رسم السين والشين، وعدم النقط قديماً في كثير من الأحيان، وعدم البعد الباعد بينهما في بعض النصوص، وخلوّ معاجم اللغة من "سِجاعة". وأنا ذاكرٌ ههنا ما وقفتُ عليه من هذا التصحيف، ثم أبحث في معنيي سِجاعة.

أ- تصحيف سِجاعة وسجّاعاً في تأريخ الرسل والملوك:

في "تأريخ الرسل والملوك" (القسم الثاني (٣٧٢/١) المطبوع في بريل، وهو أيضاً تحقيق المستشرق العلّامة دي غويه[١]، ورد خبر زينب بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما مع عبيد الله بن زياد في عقب مقتل الحسين رضي الله عنه جاء فيه: "فبكت ثم قالت: لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت. فقال لها عبيدالله: هذه شجاعة ولعمري كان أبوك شاعراً شجاعاً. قالت ما للمرأة والشجاعة، إنّ لي عن الشجاعة لشغلاً، ولكني نفتى ما أقول". فورد في النصّ "شجاعة" ثلاث مرات، و"شجاعاً" مرّة واحدة، بالسيْن المعجمة فيهنّ جميعاً. وأراهنّ تصحيف "سِجاعة" و"سِجّاعاً" بالسين المهملة منهما، وبكسر السين من "سِجّاعاً" من السجع في القول. يدلّ على ذلك خمسة أمور: منها أن عبيدالله لم يكن ليسوّغ لنفسه أن يصف أباها بالشجاعة لتعصّبه الشديد هو وأبوه

---

(١) ساعده في تحقيق هذا الجزء المستشرقون الأستاذون ثورنبيكة THORNBECKE، وفرانكيل FRANKEL، وكويدي CUIDI.

عليه. ومنها أنّ "سجّاعاً" في المعنى أقرب إلى "شاعراً" من "شجاعاً". ومنها وقوع سجع في ثلاث من عبارات زينب الخمس الأُوَل، ففي أواخرهنّ: كهلي وأهلي وأصلي. ومنها خلوّ عباراتها مما يدل على شجاعة، وهي قد بكت كما في أوّل النصّ، فكيف يجتمع البكاء والشجاعة؟ ومنها أن المرأة لم تكن توصف ذلك الزمان بالشجاعة، نصّ على ذلك أبو زيد الأنصاري كما في الاشتقاق لابن دريد (٢/٢٧٥). ومما أوقع الناسخ في هذا التصحيف وجعله يفوت على العلّامة دي غويه خلوّ معاجم اللغة من "سِجاعة"، وعدم إفساد "شجاعة" و"شجاعاً" بالشين المعجمة منهما للنص إفساداً شديداً. ووجدت التصحيف نفسه في تأريخ الطبري (٥/٤٥٧) من طبعة الأستاذ محمد أبي الفضل إبراهيم سنة ١٩٦٣. ويحتمل أن يكون التصحيف نفسه في طبعة مطبعة الاستقامة.

ب- جواز تحريف في الكامل للمبرّد:

وروى المبرّد خبر زينب وعبيدالله في الكامل (٢/١٦٧ ط. التقدّم). قال في عبيدالله: "ويُروى أنه قال في عقب مقتل الحسين بن علي عليه السلام لزينب بنت علي رحمهما الله تعالى، وكانت أسنّ من حُمِل إليه منهنّ، وقد كلّمته فأفصحت وأبلغت وأخذت من الحجّة حاجتها، فقال لها: إن تكوني بلغتِ من الحجّة حاجتك فقد كان أبوك خطيباً شاعراً. فقالت: ما للنساء والشعر؟". قلتُ: يجوز أن يكون قول عبيدالله في أبيها "... شاعراً" محرّفاً عن "ساجعاً"، وأن يكون قولها "... والشعر" في جوابها إياه محرّفاً عن "... والسجع". وأنا مستند في تجويزي هذا إلى "سجاعة" و"سجّاعاً" في نصّ الطبري، وإلى استبرادي "شاعراً" في قوله، و"الشعر" في جوابها. وسياقة الخبر في الكامل تضؤل قدراً في جنب روايته في تأريخ الرسل والملوك.

ج- تصحيف في ديوان مهيار الديلمي:

ونظير تصحيف "سِجاعة" في تأريخ الرسل والملوك ما وجدته في ديوان مهيار الديلمي تحقيق الأستاذ أحمد نسيم وطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٥. وهو قول مهيار (٣١٥/١):

صحوناً طوالاً كما تقتضي شجاعتنا وحصوناً قصارا

والبيت من قصيدة له في وصف موضع للخيش في وسطه بركة، وفي جوانبها أربع مناور مجوّفة، وحولها تماثيل تتحرك باستدارة. وهي للتبريد والزينة والتسلية.

وقوله "صحوناً طوالاً" أراد به المناور الأربع. وقوله "حصوناً قصارا" يجوز أن يكون أراد به تماثيل على هيئة حصون قصيرة، وأجد أن المعنى: اقتضت سِجاعتي أن أصف المناور بالصحون الطوال، والتماثيل بالحصون القصار. فإن صحّ تفسيري أو لم يصحّ، فالقصيدة وما مُهّد لها به من قول، يدلّان على أن "شجاعتنا" بالشين المعجمة مصحّفة عن "سِجاعتنا" بالسين المهملة. وقوله قبل البيت المذكور:

تلجلج في وصفها المحدثون وحُدّت رضوان عنها فحارا

يدلّ على أنه في تبيان وصف، لا ميدان زحف. وفي نظام سِجاعة، لا مقام شجاعة. وسأوضح معنى سِجاعة في بيت مهيار (الفقرة ٩- هـ).

د- جواز تصحيف في الفهرست:

ونظير ذلك ما وجدته في الفهرست لابن النديم المطبوع سنة ١٣٢٨هـ. وذلك في قول المؤلف في زيد بن أحمد بن عيسى بن شيخ". وأنا وإن لم أقف على محتوى الكتاب، أظن أن عنوانه يرمز لموجز عمل المؤلف فيه. فإن صحّ ظنّي

كانت "الشجاعة" فيه مصحّفة عن "السِجّاعة"، ومعروف ما بين السجاعة والبلاغة من آصرة.

هـ- معنيا السجاعة:

المعنى الأول: إن كان فيما تقدم من قول في "السِّجاعة" دلالة على أنها صناعة "السجع"، وهي تقفية الفواصل – وذلك على تلثمها بلثام الشجاعة-، فالدلالة هي قاطعة في قول المبرد في المختار بن عبيد في الكامل (١٦٧/٢): "وكان المختار يدّعي أنه يُلهم ضرباً من السجاعة". فاستعمل "السِّجاعة". وقال في تتمّة قوله فيه: "وقال في بعض سجعه: أما والذي شرّع الأديان، وجنّب الأوثان، وكرّه العِصيان"، فاستعمل ثمرة السّجاعة وهي السجع. وأيضاً الدلالة قاطعة في البيان والتبيين (٣٠١/١). وذلك أن عبدالله بن الزبير قال لمعاوية: "إني أُناديك ولا أناجيك. إنّ أخاك من صَدَقك. فانظر قبل أن تَقَدَّم. وتفكّرْ قبل أن تقدم. فإنّ النظر قبل التقدمّ. والتفكّر قبل التندّم". فقال له معاوية "تعلّمت أبا بكر السِّجاعة عند الكبر". وقد سبقني إلى القول في أن السّجاعة هي صناعة السجع الأستاذ عبدالسلام هارون مستدلاً عليه من البيان والتبيين. ولا عجب في ذلك، فقد كان من السبّاقين في علمه وفضله[1].

المعنى الثاني: وقد وجدت للسجاعة معنى آخر هو قليل الاستعمال، وهو: "صناعة القول دون التزام بتقفية الفواصل"، فمن ذلك في النثر ما رواه أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني (٢٦٣/١) من أنّ عبدالرحمن بن زياد قال لمعاوية شاكياً

---

(١) وَقَفَني على ذلك ما قرأته قبل بضعة أسابيع في العدد ٣٤ من هذه المجلة الصادر سنة ١٩٨٨ من أنه رحمه الله قدّم بحثاً إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته الرابعة والخمسين سنة ١٩٨٨ عنوانه "إضافات لغوية في كتاب البيان والتبيين"، وجاء فيه "السجاعة بمعنى صناعة السجع على وزن الخطابة بالفتح والكسر على أنها مصدر يدلّ على صناعة" ص١٠١، ولم أقف على مزيد من ذلك.

هُدبة بن الخشرم: "يا أمير المؤمنين، أشكو إليك مظلمتي، وما دُفعت إليه، وجرى عليّ وعلى أهلي وقرباي، وقتلِ أخي زيادة، وترويع نسوتي". فقال معاوية لهُدبة "قل"، فقال "إنّ هذا رجل سجّاعة". أراد أنه ذو سجاعة أو سجع، على خلوّ فواصل قوله من أي تقفية. ومن ذلك في الشعر ما تقدّم من قول مهيار، وهو بعد إصلاحه:

صحوناً طوالاً كما تقتضي سجاعتنا وحصوناً قصارا

فليس فيه ولا في القصيدة التي هو منها سجاعة أو سجع، أما صحون وحصون، وطوال وقصار، في البيت، فجناس وطباق. والجناس، وهو في صحون وحصون لم يأتِ في آخر فاصلتين ليقال له سجاعة أو سجع. ولقلة استعمال هذا المعنى من السجاعة أو السجع لم أجد له مما يشهد له إلا قول عبدالرحمن بن زياد، وقول مهيار الديلميّ: مع دءوبي في البحث عنه منذ زمن طويل.

(١٠) التمييز بين "خرج على" و"خرج عن" للمخالفة:

إذا جاز إحلال "على" محل "عن" في بعض الأفعال كما في قولهم "رضي عليه" بمعنى "رضي عنه" فإن تجويزه في "خرج" للمخالفة فيه نظر، وذلك لاختلاف المعنى، وعدم استعمال السلف إيّاه. ولتوضيح ذلك أقول:

أ- "خرج على" للمخالفة:

إذا قيل "خرج عليه" بمعنى المخالفة فالمراد به "خرج عليه بالسيف". هذا هو المعروف من كلام العرب، والذي لا يتناكره أهل العلم، ومنه ما جاء في تأريخ الموصل (١٩٠/٢)، وهو قول أبي جعفر المنصور لمطر الورّاق وقد جيء به إليه أسيراً، وكان من الخارجين عليه "فتخرج عليّ مع من لم تأنس مند رشداً؟". ومنه ما جاء في جواب مطر له: "لو خرج عليك الذرّ، فإنه أضعف الخلق، لخرجت معهم،

حتى أؤدي ما افترضه اللهُ عليّ فيك". وما جاء في الكتاب نفسه (٢٠٦/٢): "لمّا بلغ أبا جعفر المنصور أمر حسان بن مجالد الهمداني وخروجه عليه قال: خارجيّ من همدان؟" وأيضاً ما جاء في الكتاب نفسه (٢٥١/٢) وهو قول المؤلف في سنة ١٦٨هـ: "فيها خرج على المهدي بأرض الموصل رجل يُقال له ياسين من بني تميم، فخرج إليه روابط الموصل فواقعوه فهزمهم". واستعمال "خرج على" للمخالفة في كتبنا القديمة، خصوصاً التأريخية لا يأخذه العدّ، وليس يراد به إلّا الخروج بالسيف. وأرى أن "السيف" كان يستعمل مع "خرج على" ثم حذف في أكثر المواضع للعلم به. ومن إثباته وهو قليل قول النَوَويّ في النصيحة للمسلمين كما في "الأربعون النووية وشرحها" (ص٣٣): "وَتَرْك الخروج عليهم بالسيف، وتأليف قلوب المسلمين لطاعتهم"، والمراد بالخروج بالسيف السيفُ وما قد يكون معه من رمح ونبل وغير ذلك.

ب- "خرج عن" للمخالفة:

أما "خرج عن" للمخالفة فلا يدلّ على استعمال سيف ولا نحوه، بل يدل على شذوذ عن أمر معنوي. فمن ذلك قول الخليل الفراهيدي في الجزء الأول من كتاب العين (ص٤٧) في الحروف أ، ب، ت، ث: "... مدار كلام العرب وألفاظهم فلا يخرج منها عنه شيء". وقول أبي القاسم الزجّاجي في الإيضاح في علل النحو (ص٧٧): "وكل اسم رأيته غير معرب فهو خارج عن أصله". وقول الخطيب البغدادي في تأريخ بغداد (١٠٩/١) في طائفة من المسلمين: "يجتمعون في ذلك المسجد لسبّ الصحابة والخروج عن الطاعة". وقول التوحيدي في المقابسات: "خروجٌ عن حدّ الأدب المرضي، ومزايلةٌ لاحكام الخلق الزكي". وقول ابن الفقيه كما في معجم البلدان (الخبيص): "وهذا من العَجَب العاجب الخارج عن العادات". وقول الزملكاني في البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن (ص٧٤): "إذْ ليس فيها خروج عن العادة". وقول ابن ماجة في رسائل ابن ماجة الإلهية (ص١١٨): "والطَرَفَان قليلا الوجود وأحوالهما خارجة عن الطبع". "وعن" في النصوص التي

أتيتُ بها مع "خرج" للمخالفة هي أصل. وقد تحل محلّها "من" وهو قليل. أما "خرج عن" بغير مخالفة فلست بصدده، لذلك أجتزئ بمثل واحد له، وهو قول ابن الأنباري في كتابه "الزاهر" في أبي نخيلة: "وقوله (وصار للفحل لساني ويدي) معناه خرجت عن الشباب ودخلت في الكهولة". قلتُ: قول أبي نخيلة "للفحل" بالفاء أراه تصحيف "للقحل" بالقاف.

ج- القاعدة والخروج عنها:

وقد استكثرت من الشواهد لأبيتها قاعدة تقول: "(خرج على) للمخالفة يدل على ثورة باستعمال سلاح. و(خرج عن) للمخالفة يدلّ على شذوذ عن أمر معنوي". وقد نبّه على خطأ قولهم (خرج على) بمعنى (خرج عن) أستاذي وصديقي اللغوي الجليل مصطفى جواد رحمه الله قبل نحو من عشرين سنة. ولكنّنا ما نزال نرى أحياناً من يرتكب ذلك الخطأ. وقد وجدتُ بأَخَرَةٍ أستاذين فاضلين، وهما محقّقا كتاب العين، يقولان في مقدّمتهما للجزء الأول من هذا الكتاب (ص٤٣) "رأينا في ترتيب المفردات داخل أبوابها اضطراباً وخروجاً على النظام". والوجه أن يقولا ".. وخروجاً عن النظام". فرأيت أن أفرّق بين "خرج على" و"خرج عن" بقول مبسوط، وذلك لِعظَم كتاب العين في عيني، ونفاسته في نفسي، ولحذري أن يزداد الغلط ويفشو، بأن يقتدي بتعبير الأستاذين المحقّقين من لا علم له بالأمر وأحد هذين المحقّقين من المعنيين بالإصلاح اللغوي، وهو صديقي الدكتور السامرائي. فإنْ قلتَ: هذا تدرّج طبيعي في اللغة. قلتُ: إن صحّ أنه تدرّج، فهو لم يزل يبدو كأنه في بدئه، لأن أكثر الكتّاب ما تزال سلائقهم العربية تحيد عنه. فمن ذلك أنّ بين يديّ الآن العدد ٣٤ من هذه المجلة (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م)،

---

(١) ذلك على ما أتذكّر في كتابه (قل ولا تقل ج١) فإن لم يكن فيه، والكتاب ليس في متناول يدي الآن، فإنه نُشر في جريدة الزمان البغدادية قبل أكثر من ٣٥ سنة.

وقد قرأتها كلّها، فوجدتُ فيها عبارتين صحيحتين توافقان الذي قلتُ به. ولم أجد فيهما غيرهما مما يوافقه أو يخالفه. أما إحداهما فقول الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة (ص٢٣): "وهو في ذلك لا يخرج عن القواعد التي أصّلها في علم النحو". وأما الأخرى فقول المهندس حاتم غنيم (ص١٩٨): "... منهجاً واضحاً محدّداً ذا أسس لا يصحّ الخروج عنها". ثم إنّ هذا التدرّج لا فائدة من ورائه. فهو ليس لنبذِ لفظ مَسْتَكْرَهٍ وأخذِ لفظ مستحبّ بدلاً منه، ولا لأي غرض آخر معقول، بل هو عدول عن فصيح مأنوس إلى غير فصيح ولا مليح.

وأنا إذ أضع بين يدي القارئ تمييزَ السَّلَف في كلامهم بين "خرج على" و"خرج عن" للمخالفة، وخلطَ جماعة من الكتاب العصريين بينهما، أقول له: اختر ما تحبّ.

وقد كتبتُ هذه المقالة في مدينة سْوَنزي "SWANSEA" من إقليم ويلز من إنكلترا، وجاوزت مراجعها ستين كتاباً، مع عدّ جزء الكتاب كتاباً. وكان كتبي إيّاها اعتماداً على نصوص جمعتها من خزانة كتب SOAS من جامعة لندن، وخزانة كتب إقبال من جامعة كشمير، وخزانة كتب بجامعة مدريد، ومن كتب في مساجد وزوايا في مدينة سبتة. والحمد لله على ما وفّق له، وأعان عليه.

١٩٨٩/٣/٢٥

---

(١) سبته بلد مغربي يحكمه الإسبان. وفيها ثلاثة مساجد جامعة بنتها المملكة المغربية، ورتّبت لها نفقات جزيلة. وفيها أربع زوايا وكل زاوية تُعرف باسم أحد المتصوّفة. وفي هذه المساجدُ والزوايا تقام صلاة الجمعة عدا زاوية واحدة ويُدعى فيها لجلالة ملك المغرب وولي عهده. وقد عرفتُ جماعة من وجوه سبتة وعلمائها في أثناء مكثي فيها سبعة أشهر سنة ١٩٨٧. وأخبرني من أثق بخبره أنّ فيها نحو سبيعن رجلاً يحفظون القرآن عن ظهر قلب.

سوانزي (إنكلترا): صبحي البصّام